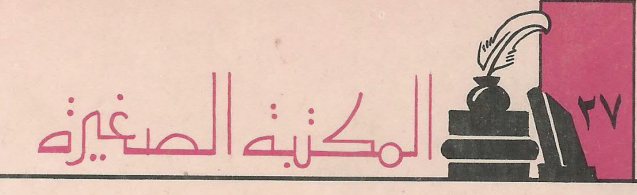


الإمام الشافعي

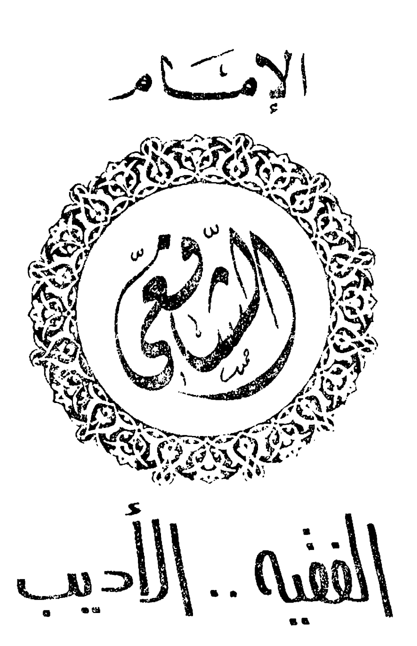
الفقيه الأديب

أحمد العزبي

المكتبة الصغيرة

٢٧

الإمام



الفقيه.. الأديب

أحمد الحوفي

الطبعة الأولى

رمضان ١٣٩٨ هـ

أغسطس ١٩٧٨ م

العناوين من اعداد الخطاط السعودي : حمد كليب الحارثي

تصميم الغلاف : اعداد شركة تهامة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

أشعر بضآلة حقاً .. وأنا أكتب هذه الكلمة .. أكتبها تمهيداً بين يدي هـذا الكتاب .. لا تعـريفاً .. أكتبها لـكي أذكر قصتي معه ، ومع مؤلفه العلامة الجليل ..

أشعر بتلك الضآلة .. كما شعرت بها كثيراً في صدر صباي ، حينما كنت أقعد مقاعد الدرس أمام أستاذي الكبير السيد أحمد العربي ..

ذلك تاريخ من التاريخ ..

فقد كنت قبل أن ينعقد العقد السادس الهجري من هذا القرن ، طالباً من طلبة المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة .. وكان مدير هذا المعهد هو الأستاذ الجليل السيد أحمد العربي ..

كان أستاذي الجليل ــ ولا يزال ــ يتميز بشخصية فذة .. لا أدري كيف أصفها ؟

هل أقول : انها شخصية نفّاذة ؟ ربما كان هذا الوصف ، من وجهة نظري ، أصدق الأوصاف لهذه الشخصية ..

وبرغم أن أستاذنا السيد أحمد العربي ، لا يتصف من حيث المظهـر بطول فارط .. ولا بعـرض سميك .. بل على العـكس

تماماً ، فانه ناحل الجسم نحولا ملفتاً للنظر .. الا انه يسيطر بشخصيته النفاذة على طلبته .. بل على طلبة مدرستين كبيرتين هما أكبر مدارس المملكة العربية السعودية آنذاك .. في حقل الدراسة الرسمية ، وهما المعهد العلمي السعودي ، ومدرسة تحضير البعثات .. فقد كان مديرهما معاً .. حيث أطلق عليه لقب (مدير المعهدين) .. وكان من بين طلبته من يكاد يقاربه في السن ..

ولم يبهرنا السيد أحمد العربي بشخصية الحازمة النظامية الدقيقة .. فحسب .. أو بحسن تصرفه ، وبعد نظره ، وعمق ادراكه للأمور .. فقط .. بل لقد كان هناك شيء هام آخر ، هو علمه الواسع ، وأدبه الجم ، واطلاعه الكبير ..

كان يبدو لنا ــ نحن طلبته ــ شخصية متكاملة .. فهو مهيب حازم ، بارع الحديث ، حسن الصوت ، متناسق الملامح ، بعيد النظر ، وهو مع ذلك أديب ، عالم ، شاعر ..

انه بكل ذلك يعدّ قدوة مُثلى ..
ولقد كان لنا نعم القدوة حقاً ..

ترجع فصاحته ، وحسن التزامه للغة العربية ، ودقة معلوماته في التراث العربي .. الى درعميته .. فهو خريج (دار العلوم) بمصر ، فقد كان من أولى بعثات المملكة العربية السعودية الى القاهرة ..

اذن .. فقد كنا نعجب بأستاذنا ايما اعجاب ..

وكان مما يضاعف هذا الاعجاب ، في أوساط الطلبة المعنيين

بالأدب والشعر .. ان أستاذنا شاعر أديب .. يسهم فى المناسبات بشعره وأدبه ..

ولمن شاء أن يرجع الى (وحي الصحراء) ليرى بعض آثاره .. أو الى الصحف التي كانت تصــدر فى أواخـــر العقد الخامس وما بعده من هــذا القرن الهجري ليقف على مساهماته الأدبيــة والشعرية ..

وعدا كل ذلك .. فقد كان مع حزمه ، يشعرنا بأبوته .. وبأننــا نجد فى صــدره الرحب ، قلبــاً كبيراً يتفهم ــ بعمق ــ مشاكلنا .. فهو يقوّم المعوج برفق وتؤدة وحكمــة .. ويشجع الأســوياء على الســير قــدماً فى الطريق المستقيم .. أما النوابغ والنابهون ، فهو كثير الحدب عليهم ، شديد العناية بهم .. لا يدخر وسعاً فى حفزهم الى الأمام .. ولعل الأدباء من الطلبة ، والشعراء منهم كانوا يلقون منه رعاية خاصة ، قد لا تدانيها رعاية أخرى .. ولا غرو فهو أديب شــاعر .. شــديد الولع بتعويد الألســنة والأقلام على اللغة العربية ناصعة سليمة .. حتى انه ليكاد يلتزم اللغة الفصحى فى حديثه كله .. على شتى المستويات ..

ولقــد كنت منذ عنيت باصــدار هــذه السلسلة من كتيبات (المــكتبة الصغيرة) أتطلع بشــوق كبير الى أن أحمل أســتاذنا الجليل على أن يسهم فيها ، طامعاً بالدرجة الأولى فى شعره ، فان لأستاذنا الجليل شــعراً يتسم بالنصاعة ، والسلاســة ، وصــدق العاطفة ، منه ، على سبيل المثال قصيدته فى العيد ، التى عنوانها (أيهــا العيد) وقــد فضلت أن أوردها كاملة ، لمــا اشتملت عليه من معان نبيلة :

أيهـا العيـد كم تثير شـجوني ... وتورّى من وجـــدى المكنون
فلكم خلف ثوبك الفاتن الخـلا ... ب من لوعـــة وشـــجو كمين

★ ★ ★

أيهـا العيـد كم تخطيت قوماً ... هم من البؤس في شـقاء قطين
لم تزدهم أيامك الغـــر الا ... حســـرة في تـــأوه وأنين
أبصروا المترفـين فيـك وللنعــمى عليهـــم رواء يسر ولين
كل رهط يفتنّ في المـأكل الملـــذوذ واللبس الأنيـــق الثمين
لا يبـــالى ما أنفقتـــه يداه ... في المـلاهي من طارف ومصون
واذا ما دعاه للبـــــر داع ... فهـو في المـكرمات جـد ضنين

★ ★ ★

أيهـا العيـد رب طفل يعاني ... فيـك من بؤســه عذاب الهون
هاجـــه تربه بملبســـه الزا ... هي ، وكم فيه للصبا من فتون ؟
فـرنا نحـــوه بطـرف كليـل ... ليس يقوى على احتمال الشجون
ثم ولى والحـزن يفـرى حشاه ... مســـتغيثاً بعطـف أم حنون
وجثـا ضـارعاً اليهـا يناجيـــها بدمـــع من مقلتيـه هتون
ويحهـا ما عسى تنـــال يداها ... وهي خلو الشمال صفر اليمين
كلمـا تســـتطيعه عـــبرات ... من عيـون مقـــرحات الجفون

أيهـا النـاس انما العيش ظل زائـل والحيـاة كالمنجنون

فلـكم قـوّض الزمان صروحاً وصروف الـزمان شتى الفنون

رب ذى نعمـة وجاه عـريض صـار ذا شـقوة وهـم مبين

★ ★ ★

أيها الموسرون رفقـاً وعطفـا وحنـاناً بالبـائس المحزون

ربما بات جاركم طاوياً جـوعاً وبتم تشـكون بشم البطون

ربما ظـل طيـلة العيد يستخـفى من الصحب قابعاً كالسجين

أي فضل للعيـد يسـتأثر المثرون فيـه بالمظهـر المضنون ؟!

والفقير الـكئيب يرجـع منـه بنصـيب المـرزّإ المغبون

★ ★ ★

ليت شـعرى متى يكـون لنا عيـد بشـير بالطـالع الميمون ؟

فيشـيع السرور في كل بيت ويـواسى فـؤاد كل حزين

قد لعمـرى أنى لنا ان نرى العيـد مشـاعاً وقـرة للعيون

ومن روائعه قصيدة حيا فيها الطلبة السعوديين الأوائل الذين تخرجوا من ايطاليا في الطيران ، وهي بعنوان (ولقد بدأنا اليوم نشعر بالحياة وبالنشور ..) وفيها يقول :

بالجـد يكتسب العـلا لا بالأمـانى والغرور

لـو أن بالآمـال والأ قـوال تنقـاد الأمور

لم يُلف في الجُلّي لنا   ندٌ ، ولم يذكر نظير

فلقد ملأنا الوهم آ   مالا تضيق بها الصدور

ولقد ملأنا الصحف أقو   الا تضيق بها السطور

ولقد وقفنا والزمان   وكل ما فيه يسير

ولقد هجعنا والحيا   ة وكل ما فيها يمور

ولقد بدأنا اليوم نشعر بالحياة وبالنشور

★ ★ ★

عجباً أنحن سلائل الا   عراب معجزة العصور

عجباً أنحن بنو أساتذة الحضارات الصدور

أنكون أول مبدعي الطيرا   ن آخر من يطير ؟

أسفاً وقد يجدى التأسف حين يحتث الشعور

ولعل في هذا الشعو   ر بوارق العهد المنير ؟

ولكن محاولاتي فى أن ينشر أستاذنا شيئاً من أشعاره فى هذه السلسلة .. لم تجد ..

ولكنى لم أيأس .. حاولت من جديد أن أحصل على شيء من بحوث أستاذنا ، وهي فيما أعتقد غير قليلة ، بينها المحاضرات التى كان يلقيها عبر حياته في التدريس ، حتى تفضل فأظفرني بهذا البحث عن الامام الشافعي ..

ولا أكتم أستاذنا الجليل ، ولا أكتم القراء ، انني سررت اذ ظفرت بهذا البحث عن الامام الشافعي بالذات .. ذلك لأن من الأماني التى أتطلع اليها أن تتناول هذه السلسلة (المكتبة الصغيرة) تقديم دراسات ميسرة عن الأئمة الأربعة لتعريف قرائها بهم .. حقاً ان الكتب المؤلفة عنهم كثيرة .. وحقاً ان الطلبة فى مدارسهم وفي كتبهم المدرسية ، يقرأون سيرهم .. ولكنى أحرص فى هذه السلسلة ، على تقديم هذه السيرة فى منهج جديد .. وسط بين الايجاز والاسهاب ، وان تلقى الأضواء على جوانب جديدة من حيواتهم .. أو ما يعبر عنه بالجانب الآخر ..

ولقد وفق أستاذنا الجليل السيد أحمد العربي .. كل التوفيق في تحقيق هذا الغرض .. فقد أوجز سيرة الشافعي العظيم .. وأبرز جوانب القدوة في حياته .. ثم تناول الجانب الأدبي .. أعنى شاعرية الشافعي ، وحسه الأدبي .. ولغته الرفيعة .. وهو الجانب الذى قلما يتناوله كاتبو سيرته .. ولذلك يعتبر هذا الكتيب ملخصاً جيداً لسيرة الشافعي الفقيه ، والشافعي الأديب ..

أما أسلوب أستاذنا السيد أحمد العربي ، فلا أمتدحه وهو ماثل أمام القراء بكل نصاعته ، وحسن تأتيه .. وببيانه السهل الممتنع ..

وانني لأسأل الله مثل هذا التوفيق ، لتقديم سيرة حياة الأئمة الثلاثة الباقين بحيث تتناول أيضاً الجوانب المتعددة لحيواتهم .. والله الموفق ، وهو من وراء القصد ؟

(الطائف ٢٤ رمضان ١٣٩٧ هـ)

عبد العزيز الرفاعي

الإمام الشافعي

سِيرَته وَعلمُه

بسم الله نستعينه ونستهديه ونصلى ونسلم على خاتم النبيين وقدوة الهداة المصلحين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، والسائرين على سنته ونهجه .

الامام الشافعي :

علم من أعظم أعلام الاسلام ومنار من أعلى منارات الهدى والرشاد ، وعبقري من ألمع عباقرة العلم والمعرفة ، ومثل رائع للشباب الكادح الطموح ، بلغ من العلم أبعد غاياته ، وحاز من الشرف والمجد أسمى درجاته . ذلك هو الفتى المطلبي القرشي محمد بن ادريس بن العباس بن شافع بن السائب ، ينسب الى جده شافع وينتهى نسبه الى عبد مناف بن قصي ، حيث يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف وقد لقي جده شافع النبي صلى الله عليه وسلم ونال شرف صحبته ، وكذلك جده السائب ، ومما يدل على سمو منزلة هذه الأسرة فى قريش ان جده السائب كان صاحب راية بنى هاشم يوم بدر ، فأسر وفدى نفسه ثم

أسلم ، فقيل له : لِم لَم تسلم قبل أن تفدى نفسك ؟ فقال ما كنت لأحرم المؤمنين من مطمع لهم في" ، ويروى أن السائب اشتكى من مرض ألم" به ـ فقال عمر رضي الله عنه : اذهبوا بنا نعود السائب فانه من مصاصة قريش كما يؤكد هذه المنزلة فى صدر الاسلام ، ان عبد الله بن السائب أخا شافع كان والياً على مكة . وأم الشافعي يمنية من الأزد . وقد دلت تربيتها وحسن توجيهها للشافعي على ما كانت تتمتع به من حصافة ونباهة وقدرة على الاضطلاع بمهام الأمومة على أفضل وجه ، وحسبنا القصة الطريفة الآتية ، دليلا على ما كانت تمتاز به هذه المرأة الجليلة من قوة الشخصية وحسن الادراك وبراعة المنطق :

يروى أن أم الشافعي شهدت عند قاضى مكة هي وامرأة أخرى ، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأتين فقالت له أم الشافعي : ليس لك ذلك ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » ، فرجع القاضى لها عن رأيه .

مولد الشافعي ونشأته :

كانت مكة موطن أسرة الشافعي ، الا أن والده ادريس هاجر الى فلسطين ومعه زوجه أم الشافعي لحاجة ألجأته الى ذلك . وفى غزة احدى مدن فلسطين الشهيرة ولد الشافعي رضي الله عنه سنة ١٥٠ خمسين ومائة من الهجرة . وبعد ولادته بقليل توفي والده وقامت أمه بحضانته خير قيام . ولما بلغ من العمر سنتين حملته أمه الى مكة لينشأ بين قومه وعشيرته ، وفي أم القرى تلقى تعليمه الأولي مبتدئاً بحفظ القرآن الكريم ، وقد لقي في المراحل الأولى من تعليمه من العناء والجهد ما كان أبلغ محك لعلو همته ومضاء عزيمته ، كما كان أقوى حافز لتتضح مواهبه ، مما جعل من الفتى المكي خير أسوة لطلاب العلم والمعرفة وأروع مثل للشبان الطامحين الى المجد والرفعة . وفيما يلي صور موجزة لبعض ما عاناه الشافعي فى طلب العلم وما بذله فى هذه السبيل من جهود وما كان يتحلى به من ألمعية وهمة قعساء :

روي أنه لمــا أسلموه الى المعلم ما كانوا يجدون الأجرة التى يتقاضاها المعلم من أمثاله ، فكان يقصّر فى تعليمه ، وكان الشــافعي يتلقف ما يعلمه المعلم للصبيان ، ثم اذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي يعلم الصبيان ما تلقفه ، فنظر المعلم فرأى الشافعي يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجــرة التى كان يطمع فيها ، فترك طلب الأجــرة منه ، واســتمر الشافعي على هذه الحال الى أن حفظ القرآن الكريم .

ويروى عن الشافعي أنه قال : لمــا ختمت القــرآن دخلت المســجد ــ يعنى المســجد الحــرام ــ فــكنت أجالس العلماء ، وأحفظ الحديث ، والمسألة وكان منزلنا بشعب الخيف ، وكنت فقيراً لا أملك ما أشترى به القراطيس ، فكنت آخــذ العظم وأكتب فيــه .

وروى صــاحب معجم الأدباء عن الشافعي فى هــذا الصــدد ما خلاصته : لمــا خرجت من الكتاب كنت أتلقط الخزف (الفخار) والدفوف (الجلود) وكرب النخل وأكتاف الجمال ، أكتب فيها الحديث ثم يقول: وكان لأمي حباب (جرار) فملأتهــا أكتافاً وخزفاً وكرباً .. مملوءة حديثــاً ثم انى خــرجت عن مكة

فلزمت هذيلا في البـادية ، أتعلم كلامها ، وآخـذ طبعها وكانت أفصح العـرب ، فبقيت فيهم أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلمـا رجعت الى مـكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب .. والأخبار ، وأيام العرب . فمر بي رجل من الزبيرين من بني عمر فقال لي : يا أبا عبد الله : عز عليّ ألا يكون مع هذه اللغـة وهذه الفصـاحة والذكاء ، فقـه ، فتكون قد سـدت أهـل زمانك . يقول الشافعي : فقلت : فمن تقصد ؟ ـ يعني ممن يؤخذ عنهم الفقه ـ فقال لي : مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ . قال الشـافعي : فوقع في قلبي (أي أنه استحسن هـذا الرأي) ، فعمدت الى الموطأ ـ موطأ الامام مالك ، أحد أمهات كتب السنة المعتبرة ـ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهراً ـ عن ظهر قلب ـ وبعد ذلك أخذ الشافعي يستعد لرحلته الى الامام مالك وذلك ما سنذكره بعد أن نورد جملة نلم فيها بثقافة الامام الشافعي، المتعددة النواحي والمصادر، قبل توجهه بكليته الى الفقه .

لقد مر بنا آنفاً أخذه الفصحى عن هذيل ، وقد بلغ فيها الذروة ، كما شهد له بذلك أئمة اللغة وجهابذتها .

قال صاحب وفيات الأعيان : كان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر ــ حتى ان الاصمعي مع جلالة قدره فى هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين ــ مالم يجتمع فى غيره . ونقل ابن عبد البر عن الزعفراني انه قال : ما رأيت أحداً قط أفصح ولا أعلم من الشافعي كان أعلم الناس وأفصح الناس ، وكان يقرأ من كل الشعر فيعرفه ، ما كان الا بحراً . وعن ابن هشام انه قال : كان الشافعي حجة فى اللغة .

ولقد ذكر المرحوم العلامة الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة

الاسلامية) نبذة نفيسة عن ثقافة الشافعي الواسعة الآفاق ، المتعددة الفنون والمعارف ، أنقلها بشيء من الايجاز فيما يلي :

« وقد تفقه الشافعي أول ما تفقه على أهل الحديث من علماء مكة كمسلم بن خالد الزنجي وسفيان بن عيينة ، ثم ذهب الى امام أهل الحديث مالك بن أنس فى المدينة فلزمه ولقي من عطفه وفضله ما جعله يحبه ويجله .. على أن نشأة الشافعي لم تكن من كل وجه نشأة أهل الحديث ولا استعداده استعدادهم . لقد توجه في أول أمره الى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع » .

ثم يقول بعد ذكره لبعض الشواهد على ذلك :

« وكان الشافعي بطبعه نهماً فى العلم شديد الرغبة فيه ، يلتمس كل ما يجده من فنونه . وقد ذكر من ترجموا له انه اشتغل بالفراسة حين ذهب الى اليمن وعالج التنجيم والطب ، وربما كان

درسهما فى احدى رحلاته الى العراق ، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية ، وكان الطب فرعاً من العلم الطبيعي .. ثم يقول :

وكان الشافعي مغرى بالرمي والفروسية ، ولم يكن في كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة ، يدعو لهم ويمدهم بالمال ... ثم نقل عن شمس الدين الصفدي فى صفة الشافعي قوله : « وكان مقتصراً فى لباسه ، يتختّم فى يساره ، وكان ذا معرفة تامة في الطب والرمي ، وكان أشجع الناس وأفرسهم ، يأخذ باذنه واذن الفرس وهو يعدو » .

وذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أيضاً في ترجمة الامام الشافعي : انه كان متأثراً في خلقه وخلُقه بالرياضة البدنية التى شغف بها منذ الصغر فكان جسمه جسم الرياضيين وخلقه خلق الرياضيين » . وقد روي عن الامام الشافعي أنه كان يحدث عن طفولته فيقول : « وكانت نهمتى فى شيئين : فى الرمي ، وطلب العلم ، فنلت من الرمي

حتى كنت أصيب من عشرة عشرة . وفى رواية من عشرة تسعة . وسكت عن العلم فقال بعض من كان يستمع اليه : أنت والله فى العلم أكثر منك فى الرمي » .

ومما يشهد لهذه النزعة والهواية الرياضية لدى الشافعي ما ذكره ابن عبد البر عن المزنى من قوله: « خرجت مع الشافعي يوماً الى الأكوام فمر بهدف فاذا برجل يرمي بقوس عربية ، فوقف عليه الشافعي ينظر ، وكان حسن الرمي ، فأصاب بأسهم . فقال له الشافعي : أحسنت بارك الله فيك . ثم قال لى : أمعك شيء ؟ قلت معي ثلاثة دنانير ، قال : اعطه اياها واعتذر عني أنى لم يحضرنى غيرها » .

رحلته الى المدينة :

قدمنا آنفاً نصيحة الرجل الزبيري للشافعي بأن يتوجّه الى الفقه بعد أن بلغ في اللغة العربية والفصاحة تلك المنزلة الرفيعة مع ما وهبه الله اياه

من ذكاء وألمعية . وفيما يلي نذكر ما أجاب به الشافعي الرجل الزبيري ، وما اتخذه بعد ذلك من خطوات فى هذه السبل نقلا من معجم الأدباء بشيء من التصرف :

تقدم لنا أن الشافعي استعار كتاب الموطأ ، وحفظه عن ظهر قلب وفيما يلى يروى لنا الشافعي الخطوات التى اتخذها فى سبيل لقاء مالك والأخذ عنه قال : ثم دخلت الى والى مكة وأخذت كتابه الى والى المدينة ، والى مالك بن أنس ، قال : فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب الى الوالي ، فلما ان قرأ قال : يا فتى : ان مشي من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً أهون علي من المشي الى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه . فقلت : أصلح الله الأمير : ان رأي الأمير يوجه اليه ليحضر . فقال : هيهات ، ليت انى اذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا . قال : فواعدته العصر وركبنا جميعاً ... فتقدم رجل فقرع الباب ، فخرجت الينا جارية سوداء . فقال

لها الأمير : قولى لمولاك انى بالباب . قال : فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت : ان مولاي يقرؤك السلام ويقول : ان كانت مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب ، وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس ، فانصرف . فقال لها : قولى له : ان معي كتاب والي مكة اليه فى حاجة مهمة . قال فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعته ثم اذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار .. فرفع اليه الوالى الكتاب . فلما بلغ الى هذه الجملة : « ان هذا رجل من أمره وحاله كذا وكذا . » ـ يعنى الشافعي ورغبته فى التلقى عنه ـ فتحدثه وتفعل وتصنع . رمى الكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ؟ أوصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤخذ بالوسائل ؟ قال الشافعي : فرأيت الوالى وقد تهيّب أن يكلمه ، فتقدمت اليه وقلت : ـ أصلحك الله ـ انى رجل مطلبي ومن حالى وقصتى ... فلما ان سمع كلامى نظر اليّ ساعة ، وكانت لمالك فراسة : فقال : ما اسمك ؟ قلت محمد .. فقال لى : يا محمد اتق الله ، واجتنب المعاصى ، فانه سيكون لك شأن

من الشأن . ثم قال : نعم وكرامة اذا كان غد تجيء ويجيء من يقرأ لك . قال : فقلت أنا أقوم بالقراءة . قال فغدوت اليه وبدأت أقرأه ظاهراً ـ غيباً ـ والكتاب فى يدى فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي واعرابى ـ أي افصاحى وعدم لحنى ـ فيقول : يا فتى زد . حتى قرأته فى أيام يسيرة ثم أقمت بالمدينة ، حتى توفى مالك بن أنس ثم خرجت الى اليمن فارتفع لى بها الشأن .

ذكرت هذه القصة على ما فيها من بعض الطول لما فيها من صور رائعة لهذا الفتى المطلبي الطموح تمثّل علو همته وصبره وجرأته وألمعيته ، كما تصور لنا ما اتّصف به امام دار الهجرة مالك بن أنس من جلال ووقار وتكريم للعلم واعزاز لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد صدق من قال فيه من أهل المدينة :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة
والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقـــار وعز ســـلطان التـــقى
فهـــو المطـــاع وليس ذا ســـلطان

ورحم الله الجرجاني اذ يقول :

ولو ان أهل العـــلم صانوه صـــانهم
ولو عظمـــوه فى النفـــوس تعظمـــا

رحلته الى اليمن :

قال الشافعي : « لمـــا مات مالك . كنت فقيراً ، فاتفق ان والي اليمن قـــدم المدينـــة فكلمـــه بعض القرشيين ان اصحبه ، فذهبت معه واستعملني فى أعمال كثيرة ، وحمدت فيها والناس أثنوا علي » .

وقد أخذ الشافعي عن جماعة من أهل اليمن .. ويقـــولون : ان الشافعي ، جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها .

وارتفع شـــأن الشافعي باليمن .. ثم ان الحساد سعوا به الى هارون الرشيد ، وكان باليمن واحد من

قواده ، فكتب اليــه يخوفه من العلويين . وذكر فى كتابه ، ان معهم رجــلا يقال له محمد بن ادريس الشــافعي ، يعمل بلسانه مالا يقدر المقاتل عليــه بسيفه ، فان أردت أن يبقى الحجاز عليك فاحملهم اليك .

وحمل الشافعي من الحجــاز مع قوم من العلوية تســعة وهو العــاشر الى بغداد ، ثم لمــا ادخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم فضربت أعناق التسعة ثم لمــا قدم الشافعي قال : يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي ، وانمــا ادخلت فى القــوم بغياً علي . وانما أنا رجل من بني عبد المطلب بن عبد المناف ، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه .. وقد استطاع الشافعي بلباقته وفصاحته أن يقنع الرشيد ببراءته ، فأطلقه الرشيد وأكرمه .

الشافعي بين مكة وبغداد :

تقدم لنا ان الشافعي أخذ عن محمد بن الحسن صاحب الامام أبي حنيفة فى احدى رحلاته الى بغداد،

وفي أثنـــاء اقامته فى بغداد كان يناظر العراقيين فى فقههم ، ويعتبر نفسه تلميذاً لمالك . الا أنه لما اطلع فى العـــراق على آراء غير آراء أســتاذه مالك ، وعلى منهاج فى الفقـــه غير منهـــاج مالك ــ أخـــذ يدرس ويوازن بين هذه الآراء والمناهج المختلفة . وعندما عاد الى أم القرى ، عكف على هـــذه الموازنة بجوار بيت الله الحـــرام ، الى ان خـــرج على الناس بمذهب مستقل به ، مغاير لمذهب مالك، ومذهب أبي حنيفة، كما خـــرج على النـــاس بقواعد الاســتنباط وهو ما عرف بعد بعلم أصول الفقه الذى يعزى اليـــه استنباطه ، ولقد أحسن الأستاذ محمد أبو زهرة في وصفه لهذه المرحلة من حيـــاة الشافعي العلميـــة فى كتابه « تاريخ المذاهب الاسلامية » وفيما يلي ننقل بشيء من الايجاز ما ذكره فى هذا السياق :

قال : « مكث الشـــافعي فى مكة يدرس ويفحص ويلقى على تلاميذه علمـــاً لم يألفوه من قبل ، وهو لا يخرج عن الدراسة الفقهية ، فى ظل القرآن والسنة النبوية . وفى هذه الأثناء كان يلقاه العلماء من كل

فج عميق ، فى ايام الحج ، فجاءه العراقيون وغيرهم . وكانت اقامته بمكة نحو تسع سنين فى هذه المرة ، ولا بد أن ينتشر ما وصل اليه فى كل البلاد الاسلامية، وخصوصاً ما وضعه من مناهج للاستنباط الفقهي . وليس ثمة الا مكان ينبثق منه نور العلم عاماً مشرقاً . وهو قصبة الدولة الاسلامية « بغداد » وقد ألفها وألفته ، وعرفها وعرفته .

ولذلك رحل الى بغداد سنة ١٩٥ هـ .

هنالك فى بغداد استرعى نظر كل العلماء فيها واحتفت به التلاميذ . ولم يستكبر علماء بغداد عن أن يكون فيهم تلاميذ له ، فقد تتلمذ له أحمد بن حنبل الذى لقيه بمكة من قبل ، وعجب من عقله وفكره . وأخذ عنه اسحاق بن راهويه ، وهو في سن قريبة من سنه . وأشباههم، غير التلاميذ الذين أخذوا يتلقون عنه ، ويتخرجون عليه ، وكان يجيب الجميع ويعجبون باجابته ، لأنه قد أتى بعلم لم يكن على منهاج ما درسوا ، ولأنه يتحلى بصفات لم تكن فيمن سبقوه ، ولكل فضله .

أما المنهاج فقد جاءهم بعلم الأصول الذى هو منهاج الاستنباط ، يبينه بالتفصيل .. وأما ما تحلى به من صفات ، فهو الفصاحة والبيان والقدرة على المناظرة والمجادلة . فقد كان فصيح العبارة ، قوي التأثير فى بيانه ، حتى لقد قال فيه بعض معاصريه : « انه خطيب العلماء » . وفى هذه القدمة الى بغداد – أملى كتبه التى أسماها الكتب البغدادية ، ففيها كتابه الأم ويسمى المبسوط ، وهو عدة كتب شملت أكثر ما اثر عنه فى الفروع .

وكذلك أملى كتابه فى أصول الفقه وهو الذى يسمى الرسالة ، رواهما عنه الزعفراني .

وبهذا نشر علمه في كل بلاد المشرق مما وراء العراق ، عن أولئك التلاميذ الذين كانوا يحتفون به في درسه .. »

نكتفي بهذا القدر مما ذكره أبو زهرة عن اقامة الشافعي ببغداد ومغادرته اياها الى مكة ثم عودته اليها ثانياً واقامته بها اقامة قصيرة وارتحاله منها الى مصر .

وفيما يلي نذكر بشيء من التفصيل رحلتـه الى مصر :

رحلته الى مصر :

قدم الشافعي الى مصر سنة تسع وتسعين ومائة ، فى أول خلافة المأمون وكان سبب قدومه الى مصر ان العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله ابن العباس ، استصحبه فصحبه ، وكان العباس هذا خليفـة لأبيه عبد الله على مصر ، ولم يزل الشافعي بمصر الى أن ولي السرى بن الحـكم البلخي مصر واستقامت له وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر أحداً عليه ، وكان الشافعي محبباً الى الخاص والعام، لعلمه وفقهه وحسن كلامه وأدبه وحلمه ...

واذا صـح ان هـذا الوالى العبـاسي هو الذى استصحبه الى مصر ، فقد حقق له أمنية كانت تتوق اليها نفسـه ، كما يدل على ذلك تمثـله بالبيتين التاليين حين أراد الخروج الى مصر :

لقـــــد أصبحت نفسى تتـــــوق الى مصر
ومن دونهـــــا قطـــع المهـــامه والقفر
فـــــــوالله ما أدرى ألللفـــــوز والغنى
أســـاق اليهـــا أم أســـاق الى القبر ؟

وقد أورد صاحب معجم الادباء فى سياق البيتين السابقين ــ عن خروج الشافعي ــ الى مصر القصة التالية نذكر خلاصتها لطرافتها ولا نجزم بصحتها : قال : فخرج فقطع عليه الطريق فدخل بعض المساجد وليس عليــه الا ثياب رثة فلم يلتفت اليه أحــد . فقال :

عليّ ثيـــــاب لو يبـــــاع جميعهـــــا
بفلس لـــــكان الفلس منهـــــن أكثرا
وفيهـــــن نفسى لو يقـــاس ببعضـــها
نفـــــوس الورى كانت أجـــــل وأكبرا
وما ضر نصـــل السيف اخـــلاق غمـــده
اذا كان عضـــــباً أين وجهتـــــــه فرى

يقول مصطفى عبد الرازق : « اذا كان الشافعي

قد خرج الى مصر يلتمس نشر مذهبه فهو انما أراد أن يلتمس لآرائه ميداناً جديداً بعد أن أدرك النصر فى الحجاز والعراق . وقال الربيع : سألني الشافعي عن أهل مصر فقلت : هم فرقتان ، فرقة مالت الى قول مالك ، وناضلت عنه ، وفرقة مالت الى قول أبي حنيفة وناضلت عنه ، فقال : أرجو أن أقدم مصر ان شاء الله فآتيهم بشىء أشغلهم عن القولين جميعاً . قال الربيع : ففعل ذلك والله حين قدم مصر » .

وقال النووي : وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره فى البلدان ، وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر النواحي والأقطار ، للتفقه عليه ، والرواية عنه ، وسماع كتبه وأخذها عنه وسار أهل مصر وغيرهم وابتكر كتباً لم يسبق اليها، ومنها أصول الفقه .

وقد أقام الشافعي بمصر الى أن وافته المنية سنة ٢٠٤ هـ وهو فى الرابعة والخمسين من عمره وكان فى آخر عمره شديد العلة بالبواسير .

ويروى في سبب موت الشافعي : انه كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس ، يقال له فتيان ، فيه حدة وطيش ، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما ، فتناظرا يوماً فى مسألة .. فظهر عليه الشافعي فى الحجاج - انتصر عليه فى المناظرة - فضاق فتيان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً ، فلم يردّ عليه الشافعي حرفا ومضى فى كلامه ، فرفع ذلك رافع الى والي مصر فطلبه وعزره ، فحقد فتيان على الشافعي فلقيه ليلا فضربه بمفتاح حديد فشجّه فتمرض الشافعي الى ان مات .

وقد علق الشيخ مصطفى عبد الرازق على هذا الخبر في ترجمته للامام الشافعي بقوله :

« لم تقتل الشافعي شجة فتيان المزعومة ، انما قتل الشافعي ما بذله من جهد عنيف في السنين الأربعة التي أقامها بمصر ، ما بين تأليف وتدريس ، وسعي في بث مذهبه ، ومدافعة كيد خصومه . هذا الى مرضه المنهك .. »

وقال المزني : دخلت على الشافعي في مرضه الذي

مات فيــه ، فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللاخوان مفارقاً ، ولكأس المنية شــارباً ، وعــلى الله جــل ذكــره وارداً . ولا والله ما أدرى . روحي تصير الى الجنــة فأهنيها ، أو الى النار فأعزيها . ثم بكى وأنشأ يقول :

فلمــــا قســــا قلبي وضــــاقت مذاهبي
جعلت رجائي نحــــــو عفــــوك سلما
تعــــاظمنى ذنبى فلمــــا قـــــرنته
بعفـــــوك ربى كان عفـــــوك أعظما
فمــــا زلت ذا عفـــو عن الذنب لم تزل
تجـــــود وتعفــــو منــــــة وتكرما
فـــــلولاك لم يغـــــــدر بابليس عابد
فكيف وقـــــد أغـــــوى صـــفيك آدما

علم الشافعي وفقهه :

لقد مرت بنا شذرات عن علم الشافعي وفقهه ، وفيما يلي نقتبس من كتاب الشيخ محمد أبو زهرة

بشيء من الايجاز ، نبذة مما ذكره فى هذا الصدد : قال : «لقد شغل الشافعي الناس بعلمه وعقله وبلاغته ، شغلهم في بغداد عندما كانت تعقد بينه وبين فقهائها المناظرات ، وهو شاب يتلقى عن محمد بن الحسن ، وشغل العلماء الذين كانوا يجيئون الى البيت الحرام .. حاجين ، ومتزودين بزاد من علم الرسول ، وأحاديث يتلقونها عن بقية التابعين بها ، وشغل بغداد مرة ثانية بالثمرات العلمية التى وصل اليها ، وهو عاكف فى البيت الحرام ، يضع القواعد ويجمع الأصول ، ويدرس المذاهب دراسة مقارنة لم يسبق بها . ثم لما جاء الى مصر شغل الناس بعلمه الذى لم يعرفوا له نظيراً فيما درسوا وان كان لكل فضله وسبقه .

ولقد انطلق بالثناء عليه شيوخه الذين تلقى عنهم ، وقرناؤه الذين ناظروه ثم كانوا له كالتلاميذ ، وتلاميذه الذين حفظوا للأجيال علمه الغزير ... ثم قال :

« والحقيقة انه اوتى من أسباب العلم ما يجعل

له هذه المنزلة السامية ، فقد أوتي علم القرآن الكريم ، ففقه معانيه ، وأدرك كثيراً من أسراره ومراميه ، وقد قال بعض تلاميذه : « اذا أخذ الشافعي فى التفسير كان كأنه شاهد التنزيل . » — وأوتى علم الحديث ، فروى أحاديث من كانوا بمكة من بقية التابعين ، وروى أحاديث الامام مالك ، فقرأ عليه الموطأ الذى يعدّ أول مدون كامل فى الحديث . وأوتى العلم العراقي راوياً له عن العراقيين في الفترة التى التقى فيها بالامام محمد بن الحسن . وأوتى مع هذا فقه الرأي وضبط قواعد الفقه، فوضع ضوابط القياس وضوابط النسخ . . »

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه :

نقتبس فيما يلي فقرات مما ذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق تحت هذا العنوان :

قال : « اذا كان الشافعي هو أول من وجّه الدراسات الفقهية الى ناحية علمية ، فهو أيضاً أول من وضع مصنفاً فى العلوم الدينية الاسلامية ، على

منهج علمي ، بتصنيفه في أصول الفقه . قال الرازي : اتفق الناس على أن أول من صنّف في هذا العلم ـ أي علم أصول الفقه ـ الشافعي وهو الذى ميز بعض أقسامه من بعض ، وشرح مراتبها في القوة والضعف ... »

وقال الرازي أيضاً : « وأعلم ان نسبة الشافعي الى علم الأصول كنسبة « أرسطاليس » الى علم المنطق ، وكنسبة « الخليل بن أحمد » الى علم العروض » ...

المذهب الشافعي وانتشاره فى العالم الاسلامي :

كان الشافعي فى أول أمره يعد نفسه تلميذاً لمالك ، ومتبعاً لمذهبه ، وما زال كذلك الى أن قدم الى بغداد ، واتصل بأصحاب أبى حنيفة ، وأخذ عن محمد بن الحسن الشيباني ، واطلع على طريقة العراقيين ، فاقتبس من ذلك أحسنه ، وأضافه الى ثروته الحجازية في اللغة والأدب، والحديث، وطريقة الحجازيين فى الاستنباط : « ومنذ ان عاد الشافعي

الى مكة بعــد اقامته فى بغداد ، أخــذ ينهج منهاجاً فقهياً ، ليس فيه تابعاً لشيخه مالك رضي الله عنه ، ولا لمحمد بن حسن الشيباني الذى كان يحمل فقــه العراقيين ، وقد اتجه كما أشرنا من قبل الى دراسات كلية مع دراســة الفروع ... وقد استقبل الناس ذلك النوع من العلم على انه فتح جديد فى الدراسات الفقهية لم يسبق به الشافعي ... » أبو زهرة .

ثم لم يلبث الشافعي ان أعلن مذهبه الجديد فى بغداد سنة ١٩٥ هـ ودعا اليــه فتبعه فيــه بعض أصحابه البغداديين . ولما لم يجد الشافعي لمذهبه فى العراق النجاح الذى كان ينشده ، لمزاحمة الحنفية له ، ولمــا لهم من جاه وسلطان ، تحــول الى مصر ، وأقام بها نحو أربع سنوات أملى فيها كثيراً من كتبه وانتشر مذهبه بمصر بعد أن ابتدأ بنشره بالعراق، ومن العراق انتقل الى خراســان وما وراء النهر . ومع ان المذهب الحنفي كان مذهب الدولة العباسية السائد بين رعاياها المؤيد بسلطانها ، كان المذهب الشــافعي ينازعه السلطان فى الشــعب ، واستمر

سلطانه في مصر حتى بعد استيلاء الفاطميين عليها . وقد امتد سلطانه الى الشام واليمن وفارس وغيرها ولم يزل يمتد وينتشر حتى بلغ فى أقصى الشرق ، بلاد الملايو وجاوة (اندونيسيا) وبعض بلاد الهند وما جاورها من الأقطار والشعوب الاسلامية ، وأصبح بذلك أحد المذاهب الاسلامية الأربعة التى يدين بها المسلمون فى معظم أرجاء العالم الاسلامي ويحتكمون الى قوانينها ودساتيرها .

آثار الشافعي :

كتب الأستاذ (أحمد أمين) فى كتابه « ضحى الاسلام » بحثاً مطولا عن آثار الشافعي .. وكتبه ، نقتبس منه بايجاز الفقرات التالية للالمام بأهم هذه الآثار :

قال : « من أهم ما وصل الينا من أعمال الشافعي رسالته فى أصول الفقه ... وقد تكلم فيها فيما يحتاج اليه المجتهد ازاء القرآن من العام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، وتكلم فى موقف

المجتهد من الحديث ناسخه ومنسوخه ... كما تكلم على الاجماع والقياس ... الى ان قال : وهو بهذا أول من وضع خطة فى البحث فى أصول الفقه جرى عليه كل من أتى من علماء المذاهب الأخرى . مستشهداً بقول الرازي : « واعلم ان نسبة الشافعي الى علم الأصول كنسبة أرسطاليس الى علم المنطق ، وكنسبة الخليل بن أحمد الى علم العروض ... »

ولما كان كتاب « الرسالة » ـ أول كتاب صنفه الشافعي في علم أصول الفقه ، فقد علق عليه الأستاذ (أحمد أمين) ـ بقوله : « وأعلم ان الشافعي « رضي الله عنه » صنف كتاب الرسالة ببغداد ، ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة ، وفى كل واحد منهما علم كثير ، والناس وان أطنبوا بعد ذلك فى علم أصول الفقه ، الا أنهم كلهم عيال على الشافعي فيه ، لأنه هو الذى فتح هذا الباب والسبق لمن سبق » .

أما كتاب « الأم » ـ وهو أكبر أثر للشافعي كما

يقـول أحمـد أمين ، فقـد جاء فى تعليقـه عليـه ما خلاصته : « وقد ثار الخلاف حديثاً فى مصر هل الأم كتاب ألفه الشافعي أو ألفه البويطي ؟ وبعد ان أشـار الى دواعي الخلاف قال : « فالظاهر انها امال أملاها الشافعي فى حلقته ، كتبها عنه تلاميذه وادخـلوا عليهـا تعليقات من عنـدهم ، واختلفت رواياتهم بعض الاختـلاف ... عـلى كل حال بين أيدينا مجموعة فى سـبعة أجزاء ، أغلبها من كلام الشـافعي رواها عنـه تلميذه وادخل فيهـا بعض تعليقـات ، أفـردها وبينهـا حتى لا تلتبس بكلام الشافعي :

ومجموع ذلك هو الذى أطلق عليه «كتاب الأم» وقـد بوّب على أبواب الفقـه ، كما فعل مالك في الموطأ ، ولكن فيه فصول فى أصول الفقه ..

وقـد أمليت هذه الأبواب فى مصر ، والعلمـاء يقسمون فقه الشافعي الى مذهبين : قديم وجـديد فأما القديم فهو ما كتبه وقال به فى العراق ، وأما الجديد فهو ما كتبه وقال به فى مصر :

« ذلك انه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل .. فغير ذلك من فقه الشافعي فى القول بالمذهب الجديد » .

الى أن يقول : وفي « الأم » مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعي ، فهو فيه فصيح العبارة ، قوي الأداء ، تشوب عبارته بلاغة البادية وفصاحتها، وقوة القرشية وايجازها .. ثم يقول : وفى الكتاب تظهر قوة الشافعي فى الجدل ، فأسلوب الكتاب كله تقريباً أسلوب جدلي ، حتى ليفترض مجادلا فيرد عليه ، ثم يعترض فيجيب .. الى أن يقول : وعلى الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالته على مناحى الشافعي فى الاجتهاد وعلى فقهه وعلى ما كان من اثر مصر فى القول بالمذهب الجديد » .

الشافعي المربي

الشافعي المربي ومنهجه التربوي :

لقد أولع الشافعي بالعلم والتعليم منذ حداثة سنه ، وقد مر بنا حديث ممارسته لتعليم الصبيان فى الكتاب ما كان يتلقفه من المعلم مما جعل المعلم يعتمد عليه فى ذلك ويعفيه من الأجرة التى كان يتقاضاها من أمثاله . وروى أنه كان يقرىء الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان حسن الصوت يشجى السامعين بقراءته ويبكيهم . وفيما يلي نبذة مقتبسة مما ذكره أبو زهرة عن انصراف الشافعي الى العلم :

قال : « منذ نعومة أظفاره اتجه الى العلم وتوافرت له أسبابه ، فقد كانت اقامته بمكة وبها بقية من التابعين ، وفيها مدرسة عبد الله بن عباس، الذى اختار جوار البيت الحرام مستقراً له ومقاماً ـ ذريعة لأن يصل في نشأته الأولى الى أعلى ما يصل اليه من هو في مثل سنه .

ولما شدا وترعرع اتجه الى عالم دار الهجرة فلازمه تسع سنين هي أخصب زمن لانتاج الشيخ .. وأخصب سن للتلميذ ، ولم ينصرف الى العمل فى غير العلم الا قليلا ، عاد بعده الى العلم مشغوفاً به مدركاً أن فيه كل الشرف ، وأخذ يدرِّس علم القرآن والسنة ، واختلاف الفقهاء ويضع الموازين بضبطها وتعرف الحق من بينها ، واتخذ مجلس درسه ابتداء فى البيت الحرام ، حتى اذا امتلأ الوعاء ذهب الى بغداد ، واتخذ فيها كرسياً آخر لدرسه ، ثم لما ضاق ببغداد، وتبرم بمناهج علمية لا يرتضيها يمّم وجهه ناحية مصر الطيبة ، التى صارت من بعد مأوى العلماء من الشرق والغرب ، عندما ادلهمّت الخطوب بأهل الاسلام ، واضطر العلماء الى الرحلة . حيث الأمن ، فلم يجدوه الا فى مصر ، وبذلك كانت حياته كلها للعلم بعقل عبقرى ولسان بليغ مصور » .

وقد تخرج على الامام الشافعي فى كل من مكة وبغداد ومصر طائفة كبيرة من العلماء الأجلاء الذين حملوا فقهه وعلمه وأدبه .. وساهموا

مساهمة جليلة فى خدمة مذهبه ونشره فى أنحاء العالم الاسلامي .

أما منهجه التربوي فقد كان الشافعي يدعو الى ورود مناهل العلم والمعرفة على اختلاف فنونها ، منوهاً بقيمة كل علم وأثره وفى ذلك يقول : « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر ، في الفقه نبل قدرته ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه » .

ولقد كان هو نفسه مثالا فذاً لهذه الثقافة المتعددة النواحي ، وكانت دروسه خير مثال لذلك ، حدث الربيع بن سليمان المرادي ، صاحب الشافعي وراوي كتبه قال : « كان الشافعي رحمه الله يجلس فى حلقة اذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو

والشعر ، فلا يزالون الى قرب انتصاف النهار ، ثم ينصرف رضي الله عنـــه » وقال بعض أصـــحابه : « ما رأيت مجلســـاً قط أنبل من مجلس الشافعي ، كان يحضره أهل الحديث ، وأهل الفقـــه ، وأهل الشعر ، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر .. » .

وقال النووي : « ان الشافعي رحمه الله مكّنه الله تعالى من أنواع العلوم ، حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون ، واعترف بتبريزه وأذعن الموافقـــون والمخالفـــون فى المحافل الـــكثيرة المشهودة ، المشتملة على أئمة عصره » ..

لقـــد كان الشافعي مبرزاً في ميدان المنـــاظرات واســـتطاع أن ينشر من آرائه واجتهاداته ويكسب الأنصـــار والمؤيدين لمذهبـــه بفضل ما أوتيـــه من الفصاحة والبلاغة وقوة البيان ، ونفاذ البصيرة ، حتى لقـــد اشتهر بين علماء عصره بناصر السنة ، كما لقبه بعضهم بخطيب العلماء . وكثيراً ما كان يلقى الأسئلة على طلابه ويحاورهم لاقناعهم بوجهة نظره ، وربما لجأ الى استثارة المنافسة بينهم بجائزة

يسميها لهم شحذاً لهممهم واذكاءاً لنشاطهم ... قال الحميدي : « كان الشافعي ربما يلقى علي وعلى ابنه المسألة فيقول : « أيكما أصاب فله دينار » .. ومما يدل على فسحه المجال لطلابه للمناقشة والمناظرة ما مر بنا من وصف الربيع لحلقات درس الشافعي حيث قال : « فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر » .

ولقد أثرت عنه أقوال كثيرة في الحض على طلب العلم والاشادة بفضله من ذلك قوله :

« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، وقوله : « ما تقرب الى الله بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، وقوله : « من لا يحب العلم لا خير فيه ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة » وقوله : « ليس العلم ما حفظ ، انما العلم ما نفع » ومن كلماته الرائعة في الاشادة بفضل العلم قوله : « كفى بالعلم فضيلة ان يدعيه من ليس فيه ، ويفرح به اذا نسب اليه ، وكفى بالجهل شيئاً ان يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب اذا

نسب اليه » . ومن مأثور كلماته الدالة على تفانيه في نشر العلم ، وحرصه على انتفاع الناس بعلمه ولو لم ينسب اليه قوله : « وددت ان الناس يفهمون ما في كتبي من معانى الكتاب والسنة وينشرون ذلك وان لم ينسبوه الي » .. ومما يدل على شدة اخلاصه في دروسه ومناظراته ، وان هدفه الأول والأخير هو الوصول الى الحق والصواب ولو على لسان خصمه ، قوله : « ما ناظرت أحداً قط ، الا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وما ناظرت أحداً الا ولم أبال أن يبين الله الحق على لساني أو لسانه » .

بهذه الروح المثالية وبهذه الهمة والاخلاص بلغ الشافعي ما بلغ من الجلالة والعظمة ونال ما نال من المجد والسؤدد ، ولقد ضرب رحمه الله تعالى بذلك أروع الأمثلة وأسناها لطلاب العلم والمعرفة ، وكان رضي الله عنه من أبرز أئمة المسلمين علماً وأدباً وخلقاً ومن أعظم رواد الهداية والارشاد .

* * *

أخلاق الشافعي وبعض ملامح شخصيته :

وصف الشافعي بعض أصحابه فقال : « كان طويلا سائل الخدين ، قليل لحم الوجه ، خفيف العارضين ، طويل العنق ، طويل القصب (عَظم العضد والفخذ والساق) ، آدم ... حسن الصوت ، حسن السمت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق مهيباً فصيحاً » .

وكان محبباً الى كل من كان فى وقته من الفقهاء، والنبلاء ، والأمراء ، كلهم يجلّ الشافعي ويعظمه . وكان مقتصراً فى لباسه ، وكان مجلسه مصوناً عن اللغط « عن التهذيب للنووي بتصرف » وفيما يلي نذكر بشيء من الايجاز ، اضمامة من أخلاقه وشمائله :

واذا كانت المروءة من أجمع الصفات لمكارم الأخلاق ، فلقد كانت من أبرز خلائق الشافعي في سيرته ومعاملاته كما أشاد بها فى كثير من مواقفه ، ومن أقواله المأثورة فى ذلك قوله : « لو علمت ان

شرب الماء البارد ينقص من مروءتى ما شربته » ، وقوله : « المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيها » وقوله : « أصحاب المروءات فى جهد » وقوله : « لو كنت اليوم ممن يقول الشعر رثيت المروءة » . ولعل الشافعي هو الذى أوحى الى الشاعر المتأخر قوله ، وان بالغ فيه كثيراً وأساء الظن بالناس جميعاً حيث قال :

مررت على المروءة وهي تبكي
فقلت علام تنتحب الفتاة ؟
فقالت كيف لا أبكي وأهلى
جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

ومن الشواهد على كمال التزام الشافعي بالمروءة ورعايته لها الحكاية الآتية :

قال المزني : كنت عند الشافعي يوماً ودخل عليه جار له خياط ، فأمره باصلاح أزراره فأصلحها فأعطاه ديناراً ، فنظر اليه الخياط وضحك ، فقال له الشافعي : خذه فلو حضرنا أكثر منه ما رضينا لك به ، فقال الخياط : انما دخلت لأسلم عليك .

فقال الشافعي : فأنت اذاً زائر وضيف ، وليس من المروءة أن يستخدم بالزائر ولا بالضيف » .

أما الحكاية الثانية فهي مثل رائع للمروءة والوفاء وحسن الرعاية لحق الصديق والتجافى عن الخداع والمجاملة الكاذبة :

« جاء رجل الى الشافعي فقال له : أصلحك الله ــ صديقك فلان عليل ، فقال الشافعي : والله لقد أحسنت الي ، وأيقظتنى لمكرمة ، ودفعت اعتذاراً يشوبه الكذب ، ثم قال : ياغلام هات السبتية (هي نعال دبغت فلانت) ، ثم قال : للمشي على الحفاء ، على علة الوجاء (الوجاء من وجأه باليد والسكين : ضربه) فى حر الرمضاء ، من ذى طوى ، أهون علي من الاعتذار الى صديق يشوبه الكذب . ثم انشأ يقول :

أرى راحة للحق عند قضائه

ويثقل يوماً ان تركت على عمد

وحسبك حظاً أن ترى غير كاذب

وقولك : لم أعلم ، وذلك من جهد

ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه
وصاحبه الأدنى على القرب والبعد
يعش سيدأ يستعذب الناس ذكره
وان نابه حق أتوه على قصد

ومن الحكايات الدالة على كرم الشافعي واكباره للمروءة وأهلها ، هذه الحكاية :

عن الربيع بن سليمان يقول : « مر الشافعي يوماً بالحذائين فسقط سوطه من يده ، فقام رجل منهم فأخذ السوط ومسحه بيده ودفعه اليه ، فقال له : مه ، أي شيء عملت ؟ آثرتني على نفسك ، كيف أؤدى شكرك ؟ ثم تنحى وضرب بيده الى كمه أو جيبه، فأخرج منه دنانير لا أدرى خمسة أو عشرة أو أكثر ، وأكبر ظنى عشرة ، وقال لى : ادفعها اليه واعتذر عنى عنده ، فانه لم يحضرنى غير هذا فى هذا الوقت » .

على ان الشواهد على كرمه وسخاء نفسه مما لا يتسع المقام لذكرها وحسبنا أن نضيف الى ما تقدم

النبذة التالية : قال الحميدي : « قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء الى مكة بعشرة آلاف دينــار فضرب خباءه خارجاً من مكة ، فكان الناس يأتون يسلمون عليه ، فما برح حتى فرقها كلها » .

وقال البويطي : « قدم الشافعي مصر ، وكانت زبيدة ترسل اليه برزم الثياب والوشي ، فيقسمها بين الناس ، وقال بعض أصحابه : كان الشافعي من أجود الناس وأسخاهم كفاً ، كان يشترى الجــارية الصناع ، التى تطبخ وتعمل الحلواء ، ويقول لنا : تشهوا ما أحببتم ، فقد اشــتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول بعض أصحابنا : اعمل اليوم كذا وكذا ... »

وهكذا كانت سماحة الشــافعي ومكارمه تجعل من منزله كنفاً لأصحابه ينعمون فيه بالغذاء الحسي الشهي الى جانب الغذاء الروحي الممتع .

الصداقة في نظر الشافعي :

لقد مر بنا نموذج رائع من وفاء الشافعي لأحد أصــدقائه ، وفيما يلى نذكر جمــلة من الأقــوال

المأثورة عن الشافعي في هذا المجال ، قال رحمه الله : « من صدق فى أخوّة أخيه ، قبل علله ، وسد خلله ، وغفر زلله » وقال : « ليس سرور يعدل صحبة الاخوان ، ولا غم يعدل فراقهم» . وقال : « لا تقصر فى حق أخيك اعتماداً على مودته » وقال : «من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » .

ولقد خبر الشافعي الناس ، وعرف الكثير من طباعهم وأخلاقهم وعلم ألا سبيل الى رضائهم ولا خير فى التمادي فى مخالطتهم ، ولا فى التجافى عنهم ، وانما الخير فى الاعتدال بين الانبساط اليهم ، والانقباض عنهم ، ولذا أوصى الربيع بقوله : « يا ربيع ، رضاء الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما يصلحك فالزمه ، فانه لا سبيل الى رضائهم ، والانبساط الى الناس مجلبة لقرناء السوء ، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة وكن بين المنقبض والمنبسط » .

ولقد كان الشافعي يربى تلاميذه ومريديه على

مكارم الأخـلاق بسيرته ونصائحه التى كان يتخولهم بها ، فقد كان مجلسه مصوناً عن اللغط والصخب، وكان يترفع عن النزول الى مستوى من يسوّل له طيشه أن يتطاول عليه بما لا يليق من الكلام وكان يقابل ذلك بالاعراض عنه كما مر بنا من اعراضه عن فتيان عندما تطاول عليـه وآذاه . ومن أقواله المأثورة فى الحث على تنزيه السمع وصيانة اللسان من الخنى والسفه قوله : نزهوا أسماعكم عن سماع الخنى ، كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فان المستمع شريك القائل ، وأن السفيه ينظر الى أخبث ما فى وعائه ، فيحرص أن يفرغه فى أوعيتكم » .

نكتفى بهذه الأمثلة من أخلاق الشافعي وأقواله المأثورة في مكارم الأخلاق ، لننتقل الى الحديث عن أدب الشافعي وحسن بيانه .

●—●—●

الشافعي .. الأديب

نثره وشعره

أدب الشافعي .. نثره وشعره :

تقدم لنا كثير من الشواهد على فصاحة الشافعي وبلاغته ، وسنورد فيما يلي بعض الشواهد والنماذج المؤيدة لذلك :

قال ابن هشام : « جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة الا اذا اعتبرها المعتبر ، لا يجد كلمة في العربية أحسن منها » وعن الزعفراني أنه قال : « كان قوم من أهل العربية يختلفون (أي يترددون) الى مجلس الشافعي معنا ، ويجلسون ناحية ، فقلت لرجل من رؤسائهم : انكم لا تتعاطون العلم ، فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعي ، أي انهم يحضرون مجالس الشافعي ودروسه لسماع لغته ، اعجاباً بفصاحته .

ولقد وصف الشيخ أبو زهرة فصاحة الشافعي وبلاغته قلماً ولساناً وصفاً دقيقاً جامعا نقتبس منه الفقرات الآتية : « كان الشافعي قوي البيان ،

واضح التعبير ، بيّن الالقاء ، أوتي مع فصاحة لسانه وبلاغة بيانه ، وقوة جنانه ، صوتاً عميق التأثير ، يعبر بنبراته ، كما يوضح بعباراته ... »
وقد روي عن بعض تلاميذه انه قال : ما رأيت أحداً الا وكتبه أكبر من مشاهدته ، الا الشافعي ، فان لسانه أكبر من كتبه ، واذا كانت كتب الشافعي على أحسن ما تكون عليه الكتب من جودة تعبير وحسن تصوير للفكرة ، فكيف تكون حال مشاهدته ؟ وهي أقوى أداء ، وأكمل اشارة ، وأحلى عبارة . ولقد بلغ من اجادته للبيان أنه قال فيه اسحاق بن راهويه : (انه خطيب العلماء) .

ولقد كان ميدان المناظرات من أقوى الميادين التى ظهرت فيها بلاغة الشافعي وسحر بيانه ، وقوة منطقه والتفوق على خصومه فقد يكون من المستحسن أن نذكر احدى مناظراته الشهيرة كنموذج لهذا اللون من الجدل والحوار ، وما يتجلى فيه من قوة الحجة وبراعة الاستدلال نذكرها ملخصة من معجم الأدباء لياقوت :

تناظر الشافعي واسحاق بن راهويه الخراساني ، وكان أحد العلماء المبرزين فى الفقه والمناظرة وكان موضوع المناظرة كراء بيوت أهل مكة ، وكان اسحاق يميل الى الرأي القائل بجواز سكنى بيوت مكة بدون كراء ، فانبرى له الشافعي في هذه المناظرة يحاوره ويجادله بقوة المنطق وحسن البيان واقامة الدليل من كتاب الله وسنة رسوله : استهل الشافعي مناظرته بقوله : قال الله عز وجل : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم » نسب الدار الى المالكين أو الى غير المالكين . قال اسحاق : الى المالكين . قال الشافعي : قوله عز وجل أصدق الأقاويل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » أنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم الدار الى مالك أو الى غير مالك ؟ قال اسحاق : الى مالك . فقال الشافعي وقد اشترى عمر بن الخطاب دار الحجامين فأسكنها ، وذكر له جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتروا دور مكة ، وجماعة باعوها . قال اسحاق : قال الله عز وجل :

« سواء العاكف فيه والباد » فقال الشافعي : اقرأ أول الآية : فقال : « والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد » قال الشافعي : والعكوف يكون فى المسجد ، ألا ترى قوله تعالى : «للطائفين والعاكفين» والعاكفون يكونون فى المساجد ، ألا ترى قوله عز وجل : «وأنتم عاكفون في المساجد » فدل ذلك أن قوله عز وجل : « سواء العاكف فيه والباد» في المسجد خاص، فأما من ملك شيئاً فله أن يكري وأن يبيع » .

وهكذا استطاع الشافعي أن يفحم خصمه بقوة الحجة وحسن البيان .

وان الشواهد من آثار الشافعي وأقواله على فصاحته وبلاغته أكثر من أن نحيط بها في هذا السياق وحسبنا من تلك الأقوال والحكم المنثورة في كتب الأدب وأسفار البيان ان نقتبس منها الشذرات التالية بالاضافة الى ما تقدم منها :

وعظ الشافعي بعض اخوانه فقال : « يا أخى ان الدنيا دحض مزلة ، ودار مذلة ، عمرانها الى

خراب صائر ، وساكنها للقبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها الى الفقر مصروف . الاكثار فيها اعسار ، والاعسار فيها يسار . فافزع الى الله ، وارض برزق الله تعالى . ولا تستلف من دار بقائك ، في دار فنائك فان عيشك فيىء زائل ، وجدار مائل . أكثر من عملك ، وقصر من أملك » .

وقال له رجل أوصني ، فقال : « ان الله تعالى خلقك حراً ، فكن حراً كما خلقك » .

وقال : « عاشر كرام الناس تعش كريماً ، ولا تعاشر اللئام فتنسب الى اللؤم » .

وقال : « لا تبذل وجهك الى من يهون عليه ردك » . وقال : « يا ربيع : لا تتكلم فيما لا يعنيك، فانك اذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها » .

وقال : « التواضع من أخلاق الكرام ، والتكبر من شيم اللئام » .

وقال : « أربعة أشياء قليلها كثير ، العلة والفقر والعداوة والنار » .

وقال : « الآمال قطعت أعناق الرجال ، كالسراب خان من رآه وأخلف من رجاه » .

وقال : « غضب الاشراف يظهر في أفعالها ، وغضب السفهاء يظهر في ألسنتها » .

وقال : « من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد فى الدنيا قرت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا » .

نكتفى بهذا القدر من روائع حكم الشافعي وأقواله المأثورة ، لننتقل الى الحديث عن شعره .

شعر الشافعي :

لئن كان الشعر مرآة ما تنطوى عليه نفس الشاعر من مشاعر وأحاسيس ، وصدى لما يختلج بين جوانحه من خلجات وعواطف ، فلقد وجد الشافعي ، المطلبي القرشي ، الناشىء فى مضارب البادية ، وتحت سمائها الضاحية ، المغتذي ببيان لغتها الصافية ، المتضلع من رحيق أدبها الأصيل ،

وجـد ذلك الفتى العبقري الملهم ، فى آفاق الشـعر متنفسـاً لمشاعره وأحاسيسه المرهفة ، استطاع أن يعرض في اطاره طائفة من عرائس أفكاره وأبكار خياله وان يغرد في ظلال الخمائل الندية ألحاناً رائعة شجية حفظت لنا كتب الأدب منها طاقة شذية برغم عزوف الشافعي عن قول الشعر عندما نضجت ملكاته العلمية ، وتصدر للتدريس والفتوى ونشر العلم على أرفع مستوى . ولقد عبر عن هذا الاتجاه بقوله:

ولولا الشـــعر بالعلمـــاء يزرى

لكنت اليـــوم أشـــعر من لبيـــد

على ان هـذا البيت يشـير الى اعتزاز الشافعي بموهبته الشعرية الجـديرة بأن تؤهله للتفوق على فحـول الشعراء وسيمر بنا فيما نورده من نماذج لشعره ، مزيداً من اعتزازه بشاعريته . واذا رجعنا الى ما حفظته لنا بعض كتب الأدب من شعر الشافعي، نجد أن غالبيتـه تدور فى اطار الحـكم والحض على مكارم الأخلاق ومعالى الأمور ، كما نجد له مقطوعات أخرى فى أكثر أغراض الشعر التى كانت معروضة

لعهده كالغزل والفخر والعتاب والرثاء ، والشكوى من هموم الحياة وسوء معاشرة بعض الناس، وسنذكر نماذج قصيرة لكل ذلك فيما يأتى ، بادئين بما نظمه فى سمط الحكم مستهلين ذلك بقصيدته الذائعة الشهرة التى تمثل هذا اللون من شعر الشافعي ، والتى جرت بعض أبياتها مجرى الأمثال :

دع الأيام تفعل ما تشاء
وطب نفساً اذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالى
فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلا على الأهوال جلداً
وشيمتك السماحة والعطاء
يغطى بالسماحة كل عيب
وكم عيب يغطيه السخاء
ولا حزن يدوم ولا سرور
ولا عسر عليك ولا رخاء
ولا تريي الأعادى قط ذلا
فان شماتة الأعدا بلاء

ولا ترج السماحة من بخيل

فما في النار للظمآن ماء

ورزقك ليس ينقصه التأني

وليس يزيد في الرزق العناء

اذا ما كنت ذا قلب قنوع

فأنت ومالك الدنيا سواء

ومن نزلت بساحته المنايا

فلا أرض تقيه ولا سماء

وأرض الله واسعة ولكن

اذا نزل القضا ضاق الفضاء

ومن روائع الشعر المنسوب الى الشافعي فى الحكم قوله :

ان الذى رزق اليسار ولم يصب

حمداً ولا أجراً لغير موفق

الجدّ يدنى كل أمر شاسع

والجد يفتح كل باب مغلق

واذا سمعت بأن محروماً أتى
ماء ليشربه فغاض فحقق

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
بنجوم أقطار السماء تعلقي

لكن من رزق الحجا حرم الغنى
ضدان مفترقان أي تفرق

وأحق خلق الله بالهم امرؤ
ذو همة يبلى بعيش ضيق

ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ومن طرائف الشعر المعزو الى الشافعي ، المعرب عن بعض طموحه وعلو همته ، وضيقه بما يعترض طريقه الى المجد من عقبات ، المعبر عن اعتزازه بامتلاكه لصولجان الشعر والبيان ، وانه الحائز لدرره ويواقيته ، وصاحب تاجه واكليله ، المنوه بخطر الشاعر وسلطان الشعر على القلوب .. قوله :

ماذا يخبر ضيف بيتك أهله

ان سيل كيف معاده ومعاجه ؟

أيقول جاوزت الفرات ولم أنل

رياً لديه وقد طغت أمواجه

ورقيت فى درج العلا فتضايقت

عما أريد شعابه وفجاجه

ولتخبرن خصاصتى بتملق

والماء يخبر عن قذاه زجاجه

عندى يواقيت القريض ودره

وعلي اكليل الكلام وتاجه

تربى على روض الربى أزهاره

ويرق فى نادى الندى ديباجه

والشاعر المنطيق أسود سالخ

والشعر منه لعابه ومجاجه

وعداوة الشعراء داء معضل

ولقد يهون على الكريم علاجه

ومن أبيات الشافعي التى يعتز فيها بما منحه الله

من ألمعية وفصاحة لسان وشخصية فذة ، قوله وقد سئل يوماً عن مسألة عويصة فأجاب فيها الجواب الشافي ثم قال :

اذا المشـــــكلات تصـــــدين لى

كشـــفت حقائقهـــا بالنظر

لســان كشقشـــقة الأرحـــبي

أو كالحســام اليمـــانى الذكر

ولســـت بامتعـــة فى الرجـــا

ل ، أســائل هـــذا وذا ما الخبر ؟

ولكنني مدره الأصـــغرين ، جلاب خير وفراج شر

ومن شعره الدال على شدة اهتمامه بنشر العلم وبذر بذوره فى التربة الصـالحة لنمائه وثمـاره ، وصـونه عمن لا يأبه به من غـير أهله ، الأبيـات الآتية :

وقد أخبر الربيع بن سليمان عن الباعث عليها بقوله : لما دخل الشافعي مصر أول قدومه اليهـا جفاه الناس ، فلم يجلس اليه أحد ، فقال له بعض

من قدم معه : لو قلت شيئاً يجتمع اليك الناس ، فقال : اليك عنى ، وانشأ يقول :

أأنثر دراً بـــين ســـارحة البَهَـــم

وأنظـم منثـــوراً لراعيـــة الغَنَم

لعمرى لئـــن ُضـــيعت في شر بلـــدة

فلست مضـــيعاً فيهمـــو غـــرر الكلم

لئن ســـهل الله العـــزيز بلطفـــه

وصـــادفت أهـــلا للعـــلوم وللحكم

بثثت مفيـــداً واســـتفدت ودادهـــم

والا فمكنـــون لـــدي ومـــكتتم

ومن منح الجهـــال علمـــاً أضـــاعه

ومن منـــع المســـتوجهين فقـــد ظلم

ولئن صح ان هذه الأبيـــات نظمها أول قدومه لمصر ، فقد استجاب الله دعاءه ، وسهل له فى مصر من حمل علومه وحكمه الى مشارق الأرض ومغاربها وقـــد طاب له بها المقام وقضى فيها بقية حيـــاته فى حقبة خصبة حافلة بالانتاج وأينع الثمار

ومن الأبيات التى رواها الربيع بن سليمان عن الشافعي التى تعبر عن رأيه فيما يجب للصديق على صديقه كما تعبر عن ألمه لفقدانه اخوان الثقة والوفاء ، قوله :

صديق ليس ينفع يوم بأس
قريب من عدو فى القياس
وما يبغى الصديق بكل عصر
ولا الاخوان الا للتآسى
عمرت الدهر ملتمساً بجهدى
لضائقة فأكداه التماسى
تنكرت البلاد علي حتى
كأنّ أناسها ليسوا بناس

وعلى هذا القياس الذى اعتمده الشافعي فى تقدير حقوق الاخوة بعضهم على بعض نجده يعاتب أحدهم عتاباً لا يخلو من قسوة ومرارة ، ونحن ننقل عن ابن عبد البر الكلمة التى مهد بها عن الباعث لهذا العتاب قال :

(... وفد محمد بن ادريس الشافعي على رجل من قومه باليمن كان بها أميراً ، فأقام عنده أياماً ثم سأله الرجوع الى داره وموضعه ، فكتب اليه معتذراً – لعله اعتذر اليه عن تزويده بما يحتاج اليه فى سفره – وعرض عليه شيئاً يسيراً . فكتب اليه الشافعي أبياتاً فى ظهر رقعته قال فيها :

أتاني عذر منك فى غير كنهه
كأنك عن برّ بذاك تحيد

لسانك هش بالنوال وما أرى
يمينك ان جاد اللسان تجود

فان قلت لى بيت وسيط وسيطة
وأسلاف صدق قد مضوا وجدود

صدقت ولكن أنت خربت ما بنوا
ونال الذى يهوى لديك بعيد

تفرق عنك الأقربون لشأنهم
وأشفقت ان تبقى وأنت وحيد

وأصبحت بين الحمد والذم واقفاً
فيا ليت شعرى أي ذاك تريد ؟

فكتب اليـه الأمير ــ بل أريد منك الحمد بأبى أنت وأمى ، وقـد وجهت اليك خمسمائة دينـار لنفقتك وعشرة أثواب من حـبرات اليمن وبختيان والسلام) .

وهكذا استطاع الشافعي بذكائه وفصاحته ، ان يضع هذا الأمير بين شقي الرحى بين الحمد والذم فـلم يجد الأمير بدأ من تدارك غلطتـه وانقـاذ سمعته ، بتلبية حاجة الشافعي ، وتفادى مذمته .

واذا كان فى هـذه الأبيـات ما يشـير الى طلب الشافعي للمال ، فانه لم يكن يطلبه لينفقه على متعه وملذاته ، وانما كان يطلبه لقضاء ما عليه من حقوق وواجبات وقد مر بنا الحديث عن سخائه ، انه عاد من اليمن ومعه عشرة آلاف دينار ، فضرب له خباء خارج مكة ولم يدخل اليها الا بعد أن فرق الدنانير كلها . وان فى البيتين التاليين لدليلا على تلهفه على بذل المعروف لكل من يقصده :

يا لهف نفسى عـلى مـال أفرقـه

عـلى المقلـين من أهـل المروءات

ان اعتـــذارى الى من جاء يســـألني

ما ليس عنـــدى لمن احـــدى المصيبات

واذا كانت نفسه ومروءته تأبيان عليه امساك المال والاعتذار عن البذل والعطاء ، فلا غرابة فى أن يحمل عـلى الذين يكنزون المـال ، ويتبـاهون بجمعه وادخاره ولا تتحـرك بين جوانحهم عواطف الشفقة والرحمة ، فيقول فى ذلك :

وأنطقت الـدراهم بعـــد صـــمت

أناســـاً بعـــد ان كانوا سكـــوتا

فما عطفـــوا على أحـــد بفضـــل

ولا عـــرفوا لمـــكرمة بيـــوتا

واذا كنا لم نعثر للشـافعي على شعر فى المديح فانا كذلك لم نعثر فى التعزية الا على هذين البيتين:

انى أعــزيك لا انى عــلى طمـــع

من الخـــلود ولـــكن ســـنة الدين

فما المعـــزى بباـــق بعـــد صاحبـــه

ولا المعـــزى وان عاشـــا الى حين

كذلك لم نعثر على شيء فى الهجـاء ، وهذا هو المتوقع من مثل الشافعي الا أن ذلك لا ينافى اظهار الضيق والتألم من مجاورة من لا يشاركه ، أو من معاشرة معشر جهلوا حق الأديب، فاستوى فى نظرهم الصفر والذهب والابريز ، والحطب وعود الطيب ، على ما بينهما من تفاضل يدركه ألو الألباب فقال فى الأولى :

وأنزلني طـــول النـــوى دار غـــربة
يجـــاورني من ليس مثـــلى يشاكله
أحامقـــــه حتى يقـــــال سـجية
ولو كان ذا عقـــل لـــكنت أعاقله

وقال فى الحال الثانية :

أصبحت طـــرحاً في معشر جهـــلوا
حـــق الأديب فبــاعوا الرأس بالذنب
والنـــاس يجمعهـــم شـــمل وبينهمـــو
في العقـــل فـــرق وفي الآداب والحسب
كمثـــل ما الذهب الابريز يشركـــه
في لونه الصـــفر ، والتفضـــيل للذهب

والعـــود لو لم تطب منـــه روائحـــه

لم يفـــرق النـــاس بين العود والحطب

أما الغزل فقد جاء فى طبقات الشافعية الكبرى عن أحد أصحاب الشافعي ، انه قال له : « قد قلت فى الزهـــد ، فهـــل لك فى الغـــزل شيء ؟ » فأنشـــد الشافعي :

يا كاحل العـين بعد النـــوم بالســـهر

ما كان كحــــلك بالمنعـــــــوت للبصر

لو أن عيني اليـــك الدهـــــر ناظرة

جـــاءت وفاتي ولم أشـــــبع من النظر

ســـقيا لدهـــر مضى ما كان أطيبـــــه

لـــــولا التفـــــرق والتنغيص بالسفر

ان الرســــــول الذى يأتي بلا عـــــدة

مثـــــل الســــحاب الذى يأتي بلا مطر

ومن الطرائف الشعرية التى رواها عن الشافعي بعض الأدباء ، كصاحب معجم الأدباء ، وصـــاحب طبقات الشافعية الكبرى وغيرهما ، الطرف الآتية :

كان لابن عبد الله الشافعي زوجة يحبها وكانت تصد عنه فقال في ذلك :

ومن البليــــــة ان تحب ... ولا يحبــك من تحبــه

ويصـــد عنك بوجهــه ... وتلج أنت فـــلا تغبــه

ومنها الطرفة التالية :

قال الربيع بن سليمان : « كنت عند الشـــافعي اذ جاءه رجـل برقعـة فقرأها ووقع فيهـا فمضى الرجل فتبعته الى باب المسجد ، فقلت والله لا تفوتنى فتيا الشافعي ، فأخذت الرقعة من يده فاذا فيها :

سـل المفتى المـــكي هـــل فى تزوار

وضـــمة مشـــتاق الفـــؤاد جناح

فوجدت قد وقع الشافعي :

فقلت معـــاذ الله ان يـــذهب التقى

تلاصـــق أكبـــاد بهـــن جراح

قال الربيـــع : فأنكرت عـــلى الشـــافعي أن يفتى لحدث بمثل هذا ، فقلت : يا أبا عبد الله ، تفتى بمثل هذا لمثل هذا الشاب ؟ فقال لى : يا أبا محمد ، هذا

رجل هاشمي قد عرس فى هذا الشهر يعنى شهر رمضان ، وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح، ان يقبل أو يضم .. فافتيه بهذا » .

ومنها الطرفة التالية :

روى ان رجلا جاءه برقعة فيها :

سل المفتى المكي من آل هاشم

اذا اشتد وجد بامرىء كيف يصنع ؟

قال : فكتب الشافعي تحته :

يداوى هواه ثم يكتم وجده

ويصبر في كل الأمور ويخضع

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه وقد كتب تحت بيت الشافعي :

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى

وفي كل يوم غصة يتجرع ؟

فكتب الشافعي رحمه الله :

فان هو لم يصبر على ما أصابه

فليس له شيء سوى الموت أنفع

ومن الأبيات الحكيمة المروية عن الشافعي والتى جرت مجرى الأمثال قوله :

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت

ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالى فاغتررت بها

وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وقوله :

ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع

وقوله :

لا تأس في الدنيا على فائت

وعندك الاسلام والعافيه

وقوله :

أكل العقاب بقوة جيف الفلا

وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

ومن المقطوعات الشعرية الرائعة المنسوبة الى الامام الشافعي رضي الله عنه المقطوعات والأبيات التالية وهي وان لم نستطع الجزم بصحة نسبتها كلها

اليه فان ايرادها فى سياق شعر الشافعي لا يخلو من متعة وفائدة ولا سيما ان الكثير منها جرى مجرى الأمثال وبعضها يكاد تتــواتر نسبتها اليــه ويكاد يلمس فيها القارىء روح الشافعي وهمته وطموحه: من ذلك قوله فى الحث على الارتحال فى طلب المجـد والرفعة :

ما في المقـــام لذى عـــلم وذى أدب
من راحــــة فـــدع الأوطان واغترب
ســـافر تجـــد عوضـــاً عمن تفارقـــه
وانصـــب فان لـــذيذ العيش في النصـــب
انى رأيت وقـــوف المـــاء يفســـده
ان ســـاح طاب وان لم يجـــر لم يطب
والأسد لولا فـــراق الأرض ما افترست
والسهم لولا فـــراق القـــوس لم يصب
والشمس لـــو وقفت في الفلك دائمـــة
لملهـــا النـــاس من عجـــم ومن عرب
والتـــبر كالتـــرب ملقى في أماكنـــه
والعـــود في أرضـــه نوع من الحطب

فان تقـــرب هـــذا عز مطلبـــه

وان تغـــرب ذاك عـــز كالذهب

وقوله فى علو الهمة والقناعة :

أمطـــرى لؤلؤا جبـــال سرنديـ

ـب وفيضى آبـــار تكـــرور تبرا

أنا ان عشـــت لســت أعـدم قـوتاً

واذا مـت لســـت أعـــدم قبرا

همـــتى همـــة الملـــوك ونفسى

نفس حــر ترى المــذلة كفرا

واذا ما قنعت بالقـــوت عمـــرى

فلمـــاذا أزور زيـــدا وعمرا ؟

وقال فى صيانة النفس والحث على الصبر والتجمل :

صن النفس واحملهـــا على ما يزينهـــا

تعش ســـالما والقـــول فيـــك جميل

ولا تولين النـــاس الا تجمـــلا

نبـــابك دهـــر أو جفـــاك خليل

وان ضاق رزق اليوم فاصبر الى غد
عسى نكبات الدهر عنك تزول
ولا خير في ود امرىء متلون
اذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الاخوان حين تعدهم
ولكنهم في النائبات قليل

وقال فى الفرج بعد الشدة :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وقال فى عاقبة البغي :

تحكموا فاستطالوا في تحكمهم
وعما قليل كأن الأمر لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى
عليهم الدهر بالأحزان والمحن

فاصبحوا ولسان الحال ينشدهم
هذا بذاك ولا عتب على الزمن

وقال فى تبرئة الزمان مما يرميه به الناس من العيب :

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب
ويأكل بعضنا بعضا عيانا

وقال فى ذم المن والتنفير منه :

لا تحملن لمن يمن من الأنام عليك منه
واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جنه
منن الرجال على القلوب أشد من وقع الاسنه

وقال فى الحث على تجنب الهم والثقة برحمة الله ولطفه :

سهرت أعين ونامت عيون
لأمور تكون أو لا تكون

فادرأ الهــــم ما اســـــتطعت عن النفـ

ــس فحمــــلانك الهمـــوم جنــــون

ان ربـا كفـــــاك بالأمس مــــا كـــا

ن ســــيكفيك في غــــــد ما يكـــون

ولعل خـير ما نختم به هذ الفصـل من شـعر الشافعي الأبيات الآتية وان تقدمت :

فلمــــا قســـا قلبي وضــــاقت مذاهبي

جعلت رجائي نحـــــو عفــــوك سلما

تعـــــاظمني ذنبي فلمــــــا قرنتـــــه

بعفــــوك ربي كان عفــــوك أعظما

فمـــا زلت ذا عفـــو عن الذنب لم تزل

تجـــــود وتعفـــــو منــــة وتكرما

ونحن اذ نكرر مع الشافعي رحمه الله تعالى هذه الأبيات نسأل الله لنا وله العفو والغفران ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، وصلى الله على خير خلقه سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه . والحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ؟

أحمد بن محمد العربي

فهرست

صفحة

صفحة

الكتاب القادم

ارطأة بن سهية

●

بقـــلم

عبد العزيز الرفاعي

الكاتب .. والكتاب



موجز ترجمة حياتي: ولدت في أوائل عام ١٣٢٣ الهجري بالمدينة الشريفة وفيها
نشأت وتلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي بمدارسها الأهلية وفي المسجد النبوي
كما درست بعد ذلك بمدرسة الفلاح والمسجد الحرام بضعة أشهر رحلت
على أثرها إلى القاهرة في ١٣٤٢ حيث التحقت بالجامع وبعد أن تحصلت على شهادة
الثانوية التحقت بدار العلوم العليا عام ٤٦ وفي عام ١٣٥٠ تخرجت منها وعدت إلى
الوطن المقدس حيث عينت مدرسا بالمعهد العلمي السعودي بمكة. وفي خلال عام ٥٢ قمت برحلة
إلى بلاد الملايو وجاوى واشتغلت بالتعليم في عاصمة جاوى حيث عينت مديرا للمدرسة الأهلية العربية
وبعد أن أمضيت هناك نحو السنة، أُبت إلى المدينة المنورة في أواسط عام ٥٤ وعاملت بعد
بضعة أشهر حتى تلقيت أمرا ساميا بتعييني أستاذا لأصحاب السمو الأمراء الكرام وبعد
أن تمت تأسيس مدرسة الأمراء بالرياض عينت مديرا لها. وفي مستهل عام ١٣٥٦ عينت
مديرا لمدرسة تحضير البعثات ثم نقلت إلى إدارة المعهد العلمي ثم عينت مديرا للمعهد. وفي
أواخر عام ١٣٦٠ عينت مديرا للتعليم الابتدائي والثانوي. وفي أوائل عام ٦٢ عينت عضوا
بمجلس الشورى. وفي عام ١٣٦٨ عينت مديرا عاما للأوقاف. وفي منتصف عام ٨٢ عدت
إلى عضوية مجلس الشورى بناء على طلب إعفائي من مديرية الأوقاف. ولا أزال عضوا بالمجلس،
بالرغم من إحالتي إلى التقاعد. والحمد لله أولا وآخرا. وحرر من القلم

في ٢٣ من شهر شعبان ١٣٨٩هـ — أحمد العربي

طبع بمطابع الروضة بجدة